

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على نبيه الكريم
دور المرأة العربية في العمل الموسيقي

إن عراقة المرأة العربية في ميدان الموسيقى متأصلة من العهد الجاهلي حيث كانت الخنساء شاعرة الرثاء يغني مراثيها كما تغني الاعشى ميمون بن قيس متغزلا في هريرة إحدى مغنيات الحيرة في أمام النعمان .

وعندما جاء الإسلام أقر الذوق السليم والصوت الحسن سواء عند الرجل أو المرأة، واستتكر الأصوات الرديئة حيث يكون الخالق في صورة لقمان الآية 19 : واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير " واشتهر كثير من الصحابة بالوت الحسن مثل سيدنا عبد الله بن مسعود الذي وقف الرسول صلى الله عليه وسلم يستمع لقراءته في المسجد وقال فيه من سره ان يقرأ القرآن كما نزل فاليقرأه على قراءة ابن ام عبد فيعني هذا الصحابي الجليل كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم لسيدنا أبي موسى الأشعري عندما استمع الى قرائته (على رواية البخاري) لقد أوتيت زممارا من زممير آل داوود واشتهرت في تلك افترة السيد سكينه ابنته سيدنا الحسين رضي الله عنه بإقامة حفلات في ناديها .

واشتهرت نساء عديدات ف المغرب وفي المشرق بتعاطي الموسيقى والغناء وتزعمتهن سيرين التي أهداها جرجير مقوقس مصر للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فأهداها بدوره الى سيدنا حسان ابن ثابت وأصبحت عميدة الفنانيين والفنانات في المدينة المنورة، كما تناولت الغناء العديد من الأميرات والأعيان سنقدم عدد منها في هذا البحث، بينما لم تدخل نساء الأوروبويات في هذا الميدان إلا في القرن التاسع عشر ميلادي وكان بعض الرجال يقومون بأدوار النساء قبل ذلك في الرويات الغنائية .

ثم واصلت المرأة العربية في العصور الموالية حضورها في الميدان الفني بأعلى المستويات الى عصرنا الحديث فكانت المكرمة المبجلة المساهمة في نهضة بلادها .

في العصر الإسلامي الاول

جميلة

هي جميلة المشهورة مولاة الأنصار كانت تنزل بالسنح وهو الموضع الذي كان ينزله سيدنا أبو بكر الصديق -تعتبر من أصول الغناء العربي - أخذ عنها معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وعقيلة والشماسيتان خليدة وربيحة وفيها يقول عبد الرحمان بن ارطاة :

ان الدلال وحسن الغناء وسط بيوت بين الخزرج

وتلكم جميلة زين النساء اذا هي تزدان للمخرج

إذا جئها بذلت ودهاء بوجه منير لها أبلج

ويقول فيها معبد: أصل الغناء جميلة وفورعه نحن، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين وتقول جميلة إنها كانت تستمع الى سائب خاثر وتأثرت به فاندفعت تغني وإذا هي تطرب فواصلت الى ان تقدمت في تعلمها بالممارسة

وكانت جميلة لا تغني إلا في بيتها فيأتي إليها الاشراف لاستماع إليها والاستمتاع بغنائها .

ومن بينهم سيدنا عبد الله بن جعفر رضي الله عنه. وحضر لديها يوما ابن سريج ومعبد وكانت عندها جارية محسنة لبقة فبأت تطارحها فاق ابن سريج نحن كنا أحق بلابتداء فأعطته جميلة درسا حيث أجابته بقولها كل إنسان في بيته أمير وليس للداخل أن يتأمر عليه!

فأجابها ابن سريج بقوله : صدقت جعلت فداك ومأدري أيهما احسن أدبك فما العيش إلا ما تلذ و تشهي ...؟

فقال صدقت والله وكلف من يصلي بالنساس وبقي معاه ودعا بالشاعر واكرمه .

وكانت حباب تتعترف بفصل سالمة وجميلها في تعليمها للغناء حتى حين أصبحت عشيقة الخليفة المفضلة .

وتفرغ اليزيد لحبابة وطلب أن لا يشوش نعيمه بشيء ولكن شاء القدر عكس ذلك حيث شرقت المسكية بأكل حبة رمان وماتت. واستبقاها الملك العاشق ثلاثة أيام وهو يشمها ويقبلها إلى ان تغيرت وعاب عليه أهله ذلك فأذن بدفنها وبقي يتردد على قبرها حتى لحق بها بعد خمس عشرة ليلة ودفن الى جنبها.

أم غناؤك قفالت له (كف يا عبيد) فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال احتوا في وجوه المداحين التراب ثم رضيت عنه واستمعت الى أغانيه وأغاني معبد وشكرت لهما انتاجهما . وتبرز مكانة جميلة عند أهل مكة والمدينة من خلال المشيعين والمستقبلين لها من الاشراف والأدباء والفنانين بمناسبة حجها التي امتنعت فيها عن الغناء بمكة رغم الإلحاح الشديد للمكيين وفي مقدمتهم عمر أبي ربيعة الذي قال : أقسمت على من كان قي قلبه حب الاستماع الى

غنائها الا خرج معها الى المدينة - فإننا خارج فخرج معها جمع أكثر من جمعها بالمدينة ولم تجلس للغناء حتى مضت عشرة أيام على مقدمها وكانت بدايتها بقصيد لعمر بن أبي ربيعة أمام جمع غصت به الدار فلم يسمع القوم أحسن من غنائها في ذلك اليوم وتأثر عمر حتى دمعت عيناه وجرى الدمع على ثيابه وغنى بعدها ابن سريج ثم ابن مسجح ومعبد وابن محرز الغريض وابن عاتة ثم ازدوج بعهم نافع وبديح بصوت واحد وأتى بعدهما دور الهذليين الثلاثة في صوت موحد واستمر بعدهم مجموعة من المطربين والمطربات أثناء اليوم الأول فأدو ما أطرب وبعث الفرحة في السامعين واستمرت الحفلات أياما عديدة بين الغناء الفردي والثنائي والجماعي مصحوبا بالعزف والرقص في اللباس الجميل والشعور الطويلة الملبوسة

عزة الميلاء

لقبت بالميلاء بسبب مشيتها التي كانت محببة في ذلك العصر مثل قول الشاعر :

فدفعها فتدافعت مشي القطاة الى الغدير

تعلمت عزة على مطربة عجوز تدعى (رائقة) غناء المطربات القديمات سرين زوجة سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه وخولة والرباب وسلمى كما تتلمذت على نشيط وسائب خاثر.

كانت عزة تقدم حلقة أسبوعية ربت بها الجمهور وقد ذكر طويس بأن الحضور كانوا في الحفلة وكأن على رؤوسهم الطير وقد كان لها عون يضرب كل مشوش بالعصا مثلما كان الشأن في مجلس أفلاطون باليونان.

وحاول المتمزتون النيل من مكانتها لدى سيدنا سعيد بن العاص ولي المدينة فوقف لها راعي الفنانين سيدنا عبد الله بن جعفر رضي الله عنه سدا منيعا

ويقول في شأنها

أ) سيدنا حسان بن ثابت : إن عزفها ذكره بما كان يسمعه عند الغساسنة في الجاهلية

ب) طويس : إنها سيدة من غنى من النساء

واشتهرت عزة العزف على آلات المعزفة والعود والمزهر للايقاع ويقال أنها المغنية نائلة بنت الميلاء التي عرفت فيما بعد ربما تكون ابنتها وتوفيت عزة الميلاء سنة 86 هـ 705 م على عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان بعدما تركت عدد من التلاميذ وجملة من التقاليد الفنية.

سلامة

سلامة وحبابة فينتان بالمدينة المنورة حاذقتان ظريفتان ضاربتان على العود وكانت حبابة أحسن وجها وسلامة أحسن غناء - وتقول الشعر - أخذتا الغناء عن معبد وابن عائشة وجميلة . ونسبت سلامة للقس وهو رجل تقي ورع من أهل المدينة تعشقها وأحبها رغم ورعه يدعى (عبد الرحمان بن أبي عمار الجشمي) واشترها يزيد بن عبد الملك بن مروان في خلافة سليمان 96/99 هـ - 717/715م) وأحبها حبا كبيرا ولم يتخل عنها وذلك بمجرد سماعه لها تغني . ومن حكايات سلامة : أن والي المدينة عثمان بن حيان المري اعطى ثلاثة أيام أجلا الخروج المغنين والموسيقين من المدينة لتطهيرها منهم حسبة نصيحة بعض المغنين فتداخل لديه الشيخ ابن أبي عتيق لفائدة سلامة باعتبارها تخلت عن الغناء وقدمها له في هيئة تقية ورعة في هندامها وبيدها سبحت فأعجب الوالي بحدثها وتلاوتها للقرآن أي إعجاب فطلب منها ابن ابي عتيق ان تغني ففعلت فزاد إعجابه به وتراجع في طرد الفنانين . فقد مات اليزيد بحضرة سلامة وناحت عليه بما لم يسمع السامعون بشيء أحسن من ذلك ولا أشجى فأبكت العيون وأحرقت القلوب وفتنت الأسماع وكانت تمتنع علن الغناء لدى الوليد وعندما يجبرها تفعل وعيناها تدمعاه وماتت سنة 126 هـ 744م

حبابة

أصل اسمها "الغالية" وغيره اليزيد بن عبد الملك بحبابة لشدة حبه لها .

وكانت حلوة جميلة الوجه حسنة الغناء طيبة الصوت متقنة الضرب بالعود أخذت الغناء مع سلامه على عزة الميلاء وابن سريج ومعبد وجميلة التي كلفت بها زميلتها سلامة لتمكنها من اتقان الغناء.

وقد سبق لليزيد ان تعشق حباة وافتن بصوتها عندما كان وليا للعهد ولم يقدر على شرائها خوفا من الخليفة أخيه سليمان ولما ولي الخلافة اشترت زوجه سعدى حباة وأخفتها ثم قالت له : هل بقي عليك في الدينا شيء لم تتله ؟

فقال : نعم الغالية يعني حباة - فقالت هذه هي وهي لك وأهدتها له فعظم قدرها وزادها اعتبارا .

ولما اجتمعت حباب وسلامة عند اليزيد قال في شأنهما فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرعينا بالإياب المسافر ماشاء بعد ذلك من أمر الدينا فليفتي .

وتمكنت حباة من قلب اليزيد حتى صارت تتدخل في شؤون الدولة وأثارت بذلك حسد الحاسدين الذين أثروا على اليزيد فابتعد عنها مدة أسبوع فطلبت من الأحوص أن يؤلف لها قصيدا غنته أمام عشيقها وفي طريقه إلى الصلاة

الا لا تلمه اليوم أن يتبلدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا إلى يقول

فما العيش الا ما تلدو تشهي ...؟

فقال : صدقت والله - وكلف من يصلي بالناس وبقي معها ودعا بالشاعر وأكرمه وكانت حباة تعترف بفضل سلامة وجميلها في تعليمها للغناء حتى حين أصبحت عشيقة الخلفية المفضلة.

وتفرغ اليزيد لحباة وطلب أن لا يشوش نعيمه بشيء ولكن شاء القدر عكس ذلك حيث شرقت المسكينة بأكل حبة رمان وماتت واستقاها الملك العاشق ثلاثة أيام وهو يشمها ويقبلها إلى أن تغيرت وعال عليه أهله ذلك فأذن بدفنها وبقي يتردد على قبرها حتى لحق به بعد خمس عشرة ليلة ودفن الى جنبها.

عليه

هي الاميرة عليه بنت الخليفة العباسي المهدي وأخت الخليفة هارون الرشيد والخليفة الفنان براهيم ابن المهدي. كانت أمها مكنونة منأجلم مغنيات المدينة اشترها المهدي في خلافة والده أبي جعفر امنصور بمائة ألف درهم وفضلها على زوجة (الخيرزان) وأخفى أمرها الى وفاة أبيه .

وقضت صباها في أحضان الخلافة العباسية فتعلمت وتثقت ورضعت لبان الفن ومن والدتها فنشأت مغنية مطربة وملحنة بارعة شاعرة بليغة. وكانت بازاء ذلك تقيه ورعة وهي التي تقول :
ما حرم الله شيئا إلا وقد جعل منه عوضا فبأي شيء يحتج عاصية والمنهك لحرماته؟
وهي التي تقول :

لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قط

وقالت عن شعرها المملوء بالغزل : لا أقول شعري إلى عبثا .

وقدمها بعض المؤرخين عن أخيها ابراهيم ف الغناء والتلحين رغم ما اشتهر به من كونه رئيس مدرسة المجددين وأبرز مزاحم لاسحاق الموصللي وأبيه وقالو عنها : ما اجتمع في الاسلام قط أخ وأخت أحسن غناء من ابراهيم بن المهدي وأخته (عليه) وكانت تقدم عليه .
وكانت لمكانتها العالية لا تغني الا في ناديها الخاص الذي يجمع خيرة الأدباء والفنانين أو لدى أمير المؤمنين في حفلات خاصة

حضر الرشيد ذات ليلة اراهيم الموصللي وطلب الغناء فتقدمت إليه جارية لحن طروب في بدايته
بنى الحب على الجور فلو انصف المعشوق فيه لسمح
فطرت وسأل لمن اللحن فأجابته القينة بأنهاالكلمات لأخته (عليه) غنته جارية ثانية
تحبب فان الحب داعية الحب وكم من بعد الدار مستوجب القرب
فأعجب بالكلمات واللحن فإذا هما لعليه وغنت ثالثة :

يا موري الزند قد أعيت قوادحه أقبس إذا شئت من قلبي بمقباس

مأقبح الناس في عيني وأسمجهم إذا نظرت فلم ابصرك في الناس

واستعاد الرشيد القطعة مرارا ولما علم أنها لأخته نظما وتلحينا ذهب إليها في ساعة متأخرة من الليل فشكرها وأحيا معها بقية السهرة .

وتروى لنا حادثة أن عليه كانت بارعة لاخراج متقنة التنظيم وصورة ذلك ان ام جعفر زوج الرشيد اشتكت اليها ميل زوجها الى جارية جديدة بديعة الجمال : فأجابتها بقولها لايهولنك هذا فوالله لأردنه إليك

ثم دبّرت جواربها وجواربها أم جعفر وبقية جوارب القصر لى غنا لها صاحبتة باخراج وحركات
جذبة وألبستهن أجمل الثياب وأبهى الحلبي وأبرزتهن للخليفة وهي مع أم جعفر في مقدمة المهشد
الذي لم يشاهد الشيد مثيله فيأخذه الإعجاب والطرب ويقبل معتذار لزوجته مكرما لأختت الي
أفهمته الموقف بشعر الغناء الذي كان :
منفصل عني وما قلبي عنه منفصل
يا قاطعي اليوم فمن نوت بعدي أن تصل
وهكذا كانت عليّة الأميرة الورعة والمغينة البارعة التي رفعت درجة الغناء وأهله وحلقت في سماء
الأدب وقضت حياتها في السعادة التي يتمناها كل أديب وفنان .

عريب

من المغنيات البارزات في العصر العباسي
وقد كانت غاية في الجمال وحسن الصوت ودقة العزف وقال فيها شيخ أهل الفن إسحاق
الموصللي : ما رأيت امرأة أضرب من عريب ولا أحسن صنعة ووجها ولا أخف روحا
وكسبت عريب شهرة عظيمة بين أهل الفن يمكنها من النغمات والايقاعات ولحفظها
لواحد وعشرين ألف لحن من التراث الموسيقي وقد قارنها معاصروها بالفنانات القديمات اللائي
رزكن أسس الموسيقى العربية مثل عزة الميلاء وجميلة .
ولكن عابو عليها سلوكها البوهيمي الذي يكتسي شيئاً من الافراط في الحرية فقد كانت لسيدها
الأول عبد الله بن اسماعيل قائد البحرية في عهد هارون الرشيد ثم فريت مع عشيق لها إلى بغداد
وهناك لم تلق معه حظها فضبطت تغني في الحدائق وأرجعت لسيدها ثم دخلت بلاط الخليفة
محمد الأمين وبعد وفاته أرجعت لسيدها الأول فهربت منه ثانية وتزوجت مع أحد عشاقها إلى أن
جلبها الخليفة عبد الله المأمون إلى بلاطه واستمرت تطرب الملوك وتسلب العقول بصوتها الرنان
وجمالها الخلاب الى أن توفيت في هد المعتصم بالله سنة 227 هـ / 842 م وأمر بعد ذلك
الخليفة المعتمد سنة 279 هـ / 892م بتدوني أغانيها .

في الأندلس والمغرب العربي

التيفاشي

هو أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون شرف الدين القيسي التيفاشي ولد سنة 580 هـ / 1184 م بتيفاش من القرى القريبة من مدينة قفصة في الجنوب الغربي التونسي .
لي القضاء بقفصة ثم انتقل إلى مصر حيث قضى بقية حياته له كتاب الموسيقى عنوانه (متعة الأسماع) نقل عنه المؤرخ الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ما يتعلق بالموسيقى في عهد الحفصيين بتونس) ما يلي :

فأما أهل افريقية (ويعنى تونس) فإن طريقتهم في الغناء مولدة بين طريقتي أهل المغرب والمشرق ، فهي أحفل من طريقة أهل الاندلس وأكثر نغما من طريقة أهل المشرق وكذلك أشعارهم التي يغنون بها ث أشعار المولدين، ونحن نذكر جانبا مما يتغنى به من الأشعار بالمغرب والاندلس وإفريقية ليقف لقارىء عليه، فمن شعارهم الملحنة التي يتداولون الغناء فيها في سائر هذه الأقاليم صوت

منفرد بالحسن خلو من الهوى عليم بأسباب القطيعة والعتب
ثم ثال (وقد حضرت بإفريقية أول القرن السابع إلى مطرب أندلسي فغنى في شعر أبي تمام الذي أوله) : (نفس البيت السابق) فعددت له في هذا البيت أربعة وزعين هزه كما حضرت جارية مغنية في مجلس عظيم من عظماء تونس تغني شعر عمر أبي ربيعة
كي الكوميت الجري لما جاهدته وبين لو يستطيع أن كلم
فمر عليها في غناء هذا البيت وحده مقدار ساعتين من الرمال
وقد بين لنا التيفاشي في هذا النص مدى تصرف المغنين والمغنيات من إشبيليا بالاندلس إذ يقول :
وتباع الجارية منهن بألف دينار مغربي وأكثر من ذلك ولا تباع الجارية إلا ومعها دفتر فيه جميع محفوظاتها. وكثيرا ما يشترط المشتري أن تكون من ضمن محفوظات الجارية قطعة (تشكي الكمت) لأنها مشتهرة بني الناس ولا يمكن أن يؤديها إلا منته مجيد في صنعة الغناء .
وبين لنا التيفاشي تركيب النوبة المغربية فقال : إنها تقوم من نشيد واستهلاك عمل ومحرك وموشحة وزجل وجميعها يتصرف في كل بحر من البحور أي أدوار الأغاني العربية وهو بذلك يقر ما أكده الكندي في القرن الثالث هجري من وحدة الموسيقى العربية ف الأصل واختلافها في لهجة الأداء كما يظهر لنا تطور الغناء عما كان عليه في عهد زرياب بقرطبة ويوضح لنا من جهة أخرى توسع النوبة في زمانه عما هي الآن في مختلف أقطار المغرب العربي وتوفي هذا القاضي الفنان بمصر سنة 651 هـ / 1253 م وهو بذلك معاصر لصفي الدين الأرموي ونصر الدين الطوسي .

مغنيات بالاندلس

وليان مكانة المغنيات ودرجة ثقافتهم في الأندلس نورد ما كتبه ابن عذاري المراكشي في مؤلفه "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" عن جارية ابن عبد الله المطلب التي "لم يرفي زمانها أخف منها روحا ولا أسرع حركة ولا الين عطا ولا أطيّب صوتا ولا أحسن غناء ولا أجود خطا وكتابة ولا أبدع أدبا ولا أحضر شاهدا مع السلامة من اللحن في كتابها وغنائها لمعرفة بالنحو واللغة والعروض الى جانب المعرفة بالطب وعلم الطبائع ومعرفة التشريح وغير ذلك مما يقصر عنه علماء الزمان وكانت محسنة في صناعة الثقافة المحاولة وبالتراس واللعب بالرمح والسيوف والخانجر المرفهة لم يسمع لها في ذلك بنظير ولا مثل ولا عدل"

واشتهرت عدة مغنيات بالأندلس محسنات نذكر منهن:

1- فضل المدينة التي كانت حاذقة للغناء كامل الخصال، أصلها لاحدى بنات هارون الرشيد نشأت وتعلمت عندها ببغداد ثم انتقلت الى المدينة المنورة فازادات طبقتها في الغناء فاشترت مع صاحبها (علم) بالمدينة ومجموعة من الجواري المغنيات للأمير عبد الرحمن صاحب الأندلس الذي كان يؤثرهن لجودة غنائهن ونصاعة ظرفهن ورقة أدهن وذلك مع جاريته الاسبانية (قلم) التي كانت تحذق الغناء مع رسوخ قدمها في الدب وحفظها للأخبار واشتهارها بالذكاء .

2- قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي صاحب إشبيلية جلبت إليه بمن بغداد وكانت من أهل الفصاحة والبيان، ومعرفة بصوغ الألحان جمعت أدبا وظرفا ورواية وحفظا، مع فهم بارع وجمال رناع وكانت شاعرة مجيدة - ومن شعرها في سيدها :

ما في المغرب من كريم يرتجي
إلا حليف الجود إبراهيم
إني حللت لديه منزل نعمة كل
المنازل ما عداه دميم

هي ولادة ابنة الخليفة المستكفي بالله الذي تولى الخلافة بالأندلس سنة 414هـ/1023م شبت في أحضان الخلافة متصلة بأبرز الدباء والفنانين الى أن صارت مغنية بارعة وأدبية أخاذة مع جمال مسي للعقول .

وقد كانت تنظم ناديا في بيتها يجتمع فيه أبرز من له صلة بالأدب والفن والنكتة ليتنافسو أمامها ويحو الفائز كلماتها المعوسلة ويحظى بالابتسامه منها والرضى .

وكان بان زيدون ذو الوزراتين هو شاعرها المفضل لسمو معانيه ومسويقية ألفاظه فكان عطفها عليه سبب سعادته من جهة ومجلبة للحساد الذين نسجوا له خيوط شقائه من جهة أخرى .

ومن شعره الذي تغنت به

ودع الصبر محب ودعك
ذائع من سره ما استودعك

وتقول في ابن زيدون :

الاهل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل محب بما لقي
ولما سجن ابن زيدون وتغيرت عليه الأيام قال في ولادة قصيدته الرائقة التي مطلعها :
أضحى التتائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
وقد أطل الله ف عمر ولادة فكانت مثال التضحية فلم تتزوج رغم هلاك العشقين من أجلها
وفضلت الحياة بين شعر وغناء وغزف تستعيد به ذكريات الشباب وتحن إلى من انسجت روحها
بروحه الشاعر ابن زيدون وكانت وفاتها بقصر والدها بقرطبة سنة 484هـ/1091م .
وقد ألفالمرحوم عبد الزاق كركباكة في تونس سنة 1945 رواية بعنوان ولادة وابن زيدون لجميعه
الكوكب التمثيلي تدعى كمغناة كان لنا شرف تلحينها آنذاك .